

سلطنة دارفور

تاريخها وبعض مظاهر حضارتها

شهد القرن السابع عشر الميلادي ، قيام سلطنة إسلامية في إقليم دارفور ، ولم تلبث هذه السلطنة — التي عرفت باسم هذا الإقليم — أن احتلت مكاناً بارزاً بين مجموعة الممالك السودانية الإسلامية ، الواقعة على طول نطاق السافانا ، بين الصحراء الكبرى ومصر في الشمال ، وبين الغابات الاستوائية في الجنوب . وتمتد من البحر الأحمر شرقاً ، إلى المحيط الأطلنطي غرباً ، وتشمل ممالك سنار ، وكردفان ، ودارفور ، وواداي ، وبجرمي والكانم — أوبرنو ، وممالك الهوسا ، ثم مملكة مالي .

ويتصف الإقليم الذي قامت فيه سلطنة دارفور بصفات طبيعية خاصة ناشئة من الوضع الجغرافي لهذا الإقليم . ففي الشمال ، ينتهي إقليم دارفور عند الصحراء الليبية ، وهذه الصحراء تمتد إلى البحر المتوسط ، في مساحات غير ذات ماء أو زرع ، تمثل حاجزاً مانعاً لامتداد الفور شمالاً ، ماعداً بعض الواحات الجنوبية ، التي استطاع الفور الوصول إليها ، وبسط نفوذهم عليها في بعض الأحيان . وفي شرق إقليم دارفور ، سلسلة عريضة من التلال الرملية تعرف بالأقواز ، وهذه تحجز بينها وبين جارتها كردفان . وفي جنوبي دارفور حاجز من نوع آخر ، هو بحر العرب ، والمنطقة التي ينتشر فيها ذباب تسي تسي ، وهذه المنطقة تمنع الفور من الانتشار في هذا الاتجاه . أما من الناحية الغربية من إقليم دارفور ، فليس بينها وبين المساحات الممتدة غرباً مثل ، واداي ، وبجرمي ، ومنطقة تشاد ، حاجز جغرافية ، ولا فروق جووية أو نباتية ، بل خضعت حدود دارفور من تلك الناحية ، إما لعوامل سياسية أو قبلية (١) .

Lampen, G.D.: "History of Darfur". S.N.R., XXXI, part II, (١)
pp. 177-178.

وينقسم إقليم دارفور من حيث التضاريس إلى ثلاث مناطق عرضية :
ففي الشمال منطقة برارى وسهوب ، تتخللها تلال وأودية ذات أشجار وأعشاب ،
وأهلها من البدو وأشباه البدو ، وقوام حياة هؤلاء وأولئك الجمل . وفي الوسط
منطقة جبلية ، أكثر مطراً ، بالقياس إلى المنطقة الشمالية وتقوم حياة أهلها على
الزراعة . وفي الجنوب منطقة رعوية ، كثيرة الأمطار ، وقوام حياة أهلها تربية
الماشية . ولعل أبرز ظاهرة طبيعية في إقليم دارفور ، هي سلسلة جبال أشهرها جبل
مرة ، وهذه تخرق البلاد من الشمال إلى الجنوب ، وتصل أعلى قممها في الجنوب
إلى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر (١) .

ويؤدى إلى إقليم دارفور ، طريقان صحراويان : أولهما درب الأربعين من
أسيوط ، وثانيهما الطريق الليبي والطرابلسي ، ويستغرق نيماً وأربعين يوماً .
وظل هذان الطريقان ، وسيلة الاتصال التجاري والحضارى ، فيما بين دارفور
ومصر وطرابلس ، عبر الأجيال والعصور ، حتى العصر الحديث ، حيث امتدت
السكة الحديدية من الخرطوم إلى الأبيض ، وأخيراً إلى نيالا ، فتغيرت وسائل
النقل ، وبطل استعمال هذين الطريقين القديمين (٢) .

ويتصف إقليم دارفور كذلك بصفات بشرية خاصة منشؤها ، تعدد
سلالاته ، واختلاف ثقافات سكانه ، ذلك أن هذا الإقليم تتنازعه سلالات
بشرية مختلفة ، بعضها قديم ، وبعضها الآخر مهاجر إليه من الشمال أو من الشرق
أو من الغرب ، مما أدى إلى تعقيد جنسياً وثقافياً ، ولو أنه شملت جميع سلالاته
تقريباً ، الثقافة العربية ، والديانة الإسلامية . غير أن تأثير سلالاته بالثقافة العربية
والديانة الإسلامية ، تختلف عمقاً وسطحية من سلالة إلى أخرى حسب نشأة كل

Ibid : Op.Cit., p. 178.

C/f. Arkell, A.J. : , "The History of Darfur". S.N.R. XXXII, part I, (١)
pp. 38-39.

Balfour - Paul, H.G. : History and Antiquities of Darfur p. 2. (٢)
Lampen, G.D. Op.Cit., p. 178.

منها ، ومدى قدمها أو قرب عهد هجرتها واختلاطها بالعرب الطارئين . ويبدو مدى التعقيد الجنسى والثقافى فى إقليم دارفور ، إذا علمنا ، أنه يشتمل على نحو ثمانى عشرة سلالة غير عربية (١) . تتحدث إثنى عشرة لغة مختلفة ، بالإضافة إلى اللغة العربية ، التى تعرفها الغالبية العظمى من سكان دارفور (٢) .

ومما لا شك فيه أن الفور هم أصحاب البلاد الأصليون ، ويستقون بالمنطقة الجبلية الوسطى ، وبها جبل مرة (٣) . ومنذ حوالى القرن السابع الميلادى ، وقد على هذا الإقليم قبائل من الشمال عن طريق النيل من ناحية ، وعن طريق الصحراء من ناحية أخرى . فمن ناحية النيل جاءت جماعات نوبية من الميذوب والبرقد ، على حين جاءت جماعات ليبية من البدايات والزغادة من شمال إفريقيا . واستطاعت هذه القبائل النوبية والليبية ، بفضل ما امتازت به من الغلبة العقلية ، وما لديها من وسائل حربية جديدة ، أن تطرد جماعات السود إلى الجبال ، وأن تقيم فى هذه المنطقة ممالك خاصة ، وأدت هذه الهجرات الشمالية كذلك إلى ازدياد تجارة الرقيق ، كما يشير إلى ذلك الإدريسي المتوفى سنة ١١٥٣ م (٤) .

أما الهجرات العربية الرئيسية إلى هذا الإقليم ، فيبدو أنها جاءت من مصر وشمال إفريقيا ، عبر السهوب والبرارى الواقعة بين النوبة وإقليم تشاد ، وذلك بعد أن قامت فى مصر وشمال إفريقيا دول إسلامية مستقلة كالطولونيين والإخشيديين ، والأدارسة والفاطميين والمماليك ، وبني مرين ، وبني حفص . والمعروف أن القبائل العربية التى هاجرت إلى إقليمى كردفان ودارفور ، كانت تحترف رعى الإبل ، ولما انتقلت جماعات منها إلى الجنوب ، لم تلبث أن استبدلت

MacMichael, H.A. : A History of the Arabs in;the Sudan Vol'I . (١)
pp. 52-89, Lampen, G.D. Op.Cit., p. 181

Arkell, A.J. : Op.Cit., p. 51. (٢)

MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 91. (٣)

Lampen, G.D. : Op .Cit., pp. 181-182. (٤)

C/f. Balfour — Paul, H.G. : Op. Cit., p. 7.

البقر بالإبل ، ومن ثم عرف هؤلاء بالبقارة ، على حين ظل أبناء عمومتهم في الشمال يراعون الإبل (١) .

وعلى الرغم من أن قبائل البقارة والأباله في كردفان ودارفور ، تضم بطوناً من قبائل عربية من غير جهينة ، إلا أنه غلب عليهم جميعاً النسب إلى جهينة (٢) . والمعروف أن الأقاليم التي احتلتها القبائل الجهنية وغيرها لم تسكن خالية من السكان ، بل اشتملت على عناصر حامية في الشمال وعناصر زنجية أو شبه زنجية في الجنوب . ولذا فإن اختلاط القبائل الجهنية من الأباله بالعناصر الحامية في الشمال ، لم يؤثر كثيراً في صفاتها الجسدية ، على حين أن القبائل الجهنية ، التي انتقلت جنوباً ، وهي البقارة ، اكتسب أفرادها بعض الصفات الزنجية ، لا تخاذم زوجات وإماء من الزنجيات . ومع أن البقارة لم يكونوا أقوى عنصر في دارفور فإنهم استطاعوا أن يشطروا هذا الإقليم شطرين ، فاحتلوا السهول الواقعة جنوبي جبال مرة ، وحصروا الفور شمالاً في منطقة الجبال ، حيث بقوا أجيالاً بعد أجيال ، على حين دفعوا قبائل الشط والبنجا والبندا والفروجية جنوباً إلى إقليم المستنقعات شمالي بحر الغزال ، حيث عرفوا بإسم القرثيت (٣) .

وعلى هذا يمكن تقسيم سكان دارفور الحاليين إلى مجموعتين : إحداهما وهي المعروفة بالمجموعة غير العربية ، والأخرى هي المجموعة العربية . أما المجموعة الأولى ، فإنها تضم — فضلاً عن الفور أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المنطقة الجبلية الوسطى — المساليط والإرنجا والقمر في الغرب ، والرغاوة والقرعان والبدايات في الشمال ، والميدوب في الشمال الشرقي ، والبرتي والبرقد في الشرق ، والداجو والبيقو في الجنوب الشرقي ، والفلاتا في الجنوب ، والتنجور في الوسط (٤) .

(١) Lampen, G.D. . Op. Cit., p. 182.

(٢) راجع محمد عوض : السودان الشمالي ، ص ٢٠٩ — ٢٥٠ .

(٣) Lampen, G.D. : Op. Cit., pp. 182-183.

(٤) Balfour-Paul, H.G. : Op. Cit., pp. 7-8.

C/f MacMichael, H.A. : Op. Cit., pp. 52-91.

أما المجموعة العربية فإنها احتلت السهول وتضم الهبانية والرزيقات والمسيرية والتعايشة وبنى هلبة والماليا في الجنوب ، والحجر في الشرق ، والزيادية في الشمال والماهرية والحاميد وبنى حسين في الغرب^(١) .

* * *

أما عن تاريخ هذه البلاد ، فليس لدينا عنه شيء مكتوب ، ومن ثم فإن المعلومات القليلة التي وصلت إلينا خاصة بتاريخها ، تعتمد أساساً على الروايات الشفوية التي حفظها أهل البلاد جيلاً بعد جيل^(٢) . وهي روايات يكتنفها التناقض أحياناً ، والغموض أحياناً أخرى ، ولذا تعين على الباحث في تاريخ دارفور ، الرجوع إلى ما سجله عن تاريخها ومظاهر حضارتها ، الرحالة الذين زاروا هذه البلاد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للهيلاد .

وأول أولئك الرواد الذين زاروا إقليم دارفور ، الرحالة الانجليزي براون W. G. Browne^(٣) . وذلك في عهد سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد . وسلك براون في رحلته إلى دارفور طريق درب الأربعين من أسبوط إلى الفاشر ، وظل في دارفور نحو ثلاث سنوات ، من يوليو سنة ١٧٩٣م إلى مارس سنة ١٧٩٦م ، إلا أنه ظل في أثناءها شبه سجين ، فلم يسمح له بالتجول في البلاد ، أو جمع معلومات عنها بسبب ارتياب السلطان في نواياه باعتباره أوربياً مسيحياً ، وفي المهمة التي من أجلها جاء هذا الأوربي المسيحي إلى دارفور . ثم أن براون لم يعثر في دارفور على تاريخ مدون لهذه البلاد ، ولذا جاءت المعلومات التي استطاع الحصول عليها من أهلها قليلة سطحية ، يشوبها الاضطراب وعدم العمق ، وذلك باستثناء بعض ملحوظات خاصة بأحوالها الاقتصادية وقتذاك^(٤) .

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالي ص ٢٣٨ — ٢٥٠ .
(٢) Bath, H. Travels in Central Africa Vol. III, p. 425.
(٣) Browne, W.G.: Travels in Africa, Egypt and Syria.
(٤) Arkell, A.G.: Op. Cit., p. 40.

وبعد حوالي سبع سنوات من رحلة براون إلى دارفور ، أى فى عام ١٨٠٣م زار هذه البلاد رحلة عربى ، هو محمد بن عمر التونسى ، وأتيح للتونسى أن يلم إلماماً واسعاً بأحوال دارفور الاجتماعية والاقتصادية ونظمها السياسية والإدارية والحربية ، وعلاقاتها بجيرانها ، فضلاً عن ذكر تاريخها فى كتابه القيم : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » (١) .

وفى المدة من عام ١٨٤٩م إلى عام ١٨٥٥م قام الرحالة المعروف هنرى بارت Henry Barth برحلته المشهورة من طرابلس الغرب إلى بحيرة تشاد ، وقد ارتاد خلال هذه المدة بلاد السودان ما بين تمبكت وبجرى . والمعروف أن بارت لم يقيم بزيارة دارفور أو واداي ، ولكنه استطاع — أثناء مقامه فى برتو — أن يجمع نتفاً قليلة عن تاريخ هذه الأقاليم ، معتمداً فى ذلك على بعض الروايات الشفوية التى نقلها عن أهل البلاد أنفسهم ، فضلاً عن إشارات قليلة لبعض المؤلفين القدامى من العرب (٢) .

وفى عام ١٨٧٤م ، وصل الرحالة الألمانى جوستاف ناختيجال Gustav Nachtigal إلى دارفور ، بعد أن أنفق ستة أعوام تقريباً فى رحلته التى بدأها من طرابلس الغرب متجهاً إلى دارفور ، عن طريق بحيرة تشاد وبجرى وواداي . وفى مدينة الفاشر عاصمة دارفور وقتذاك ، قضى ناختيجال ستة شهور ، جمع أثناءها كل ما استطاع جمعه من روايات شفوية ومكتوبة ، عن تاريخ دارفور الوسيط ، بمساعدة السلطان إبراهيم بن محمد حسين ، وأحد الأمراء الفوراويين ، واسمه باسى طاهر . وعلى الرغم من هذا فإن ناختيجال لم تتح له القرصة الكاملة لدراسة إقليم دارفور دراسةً كافيةً ، تتفق ومواهبه الفذة . ذلك بأن السلطات

(١) التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

تحقيق عساكر ومسعد .

(٢) Barth, H. : Travels in Central Africa Vol. III, pp. 528-553.

الحاكمة في دارفور ، لم تسمح له بالتجول في أنحاء البلاد ، فلزم الطريق الرئيسي الذي يقطع دارفور من الغرب إلى الشرق . ثم أنه جمع بياناته عن دارفور في مدينة الفاشر . وقد يكون هذا راجعاً إلى ارتياب السلطان في مهمته ، لاسيما وأن الحكومة المصرية كانت تستعد آنذاك لضم دارفور إلى بقية أقاليم السودان التي كانت تحت إدارتها . وتقع رحلة ناختيجال المسماة Sahara und Sudan في ثلاثة أجزاء ضخمة ، أشرف المؤلف بنفسه على نشر الجزءين الأولين منها ، ومات قبل أن يراجع ما أملاه من مذكرات خاصة بالجزء الثالث ، وهو الجزء المتعلق بواداي ودارفور . فقام أحد أصدقائه بإخراج هذا الجزء من مذكراته . ورغم القصور الذي لازم الجزء الأخير من رحلته إلى واداي ودارفور ، فإنه يعد مصدراً أصيلاً لتاريخ هذين الإقليمين ، ولا سيما ما يتعلق بتاريخ الأسرة الحاكمة في دارفور ، ونظم البلاد السياسية والإدارية في عصره (١) .

هذا عرض موجز للرحلة الذين أسهموا بمجهودهم في محاولة إجلاء بعض ما غمض من تاريخ سلطنة دارفور . وسواء أكان الهدف من هذه الرحلات التي قام بها أولئك الرحالة ، خدمة مصالح استعمارية ، أو البحث عن الحقيقة وخدمة العلم ، فإنهم كانوا جميعاً — باستثناء محمد بن عمر التونسي — موضع ارتياب السلطات الحاكمة في دارفور وقلقها ، فلم يتمكنوا من التنقل بحرية في أنحاء البلاد ، ومن ثم لم يتيسر لهم دراسة أحوال البلاد دراسة كافية .

أما محمد بن عمر التونسي ، فيختلف عن أولئك الرحالة الأوربيين . فهو تونسي الأب والجد ، مصري الأم والتربية . أفادته عروبه في الوصول إلى دارفور موطن كثير من القبائل العربية ، التي تربطه وإياها رابطة الأصل واللغة والدين ، وتربطه بأهلها من السودان — ومعظمهم وقتذاك من المسلمين — العروة الإسلامية

الوثقى . صحيح أن محمد بن عمر التونسي لم يذهب إلى دارفور حياً في الاستطلاع أو الدراسة أو الكشف الجغرافى ، ولكن ذهب للحاق بأبيه عمر التونسي الذى كان رحل إلى سنار ، ثم إلى دارفور ، ومن قبل رحل جده سليمان إلى سنار . وأفاد محمد بن عمر التونسي فى الإلمام بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والتاريخية ، علاقة أبيه وجده من قبل بهذه البلاد ، التى صاهراً أهلها ، وأضحى لمحمد بن عمر التونسي فيها إخوة وأعمام . وقد اشتغل هؤلاء جميعاً بالعالم والتجارة ، وتنقلوا بين تونس ومصر والحجاز وسنار ودارفور وواداي . وصارت لهم مصالح تجارية واسعة ، ومراكز سياسية مرموقة ، ومكانة دينية عظيمة عند ملوكها وفقهائها ، وبما لا شك فيه ، أن خبرة هؤلاء جميعاً تضيف كثيراً إلى ما اكتسبه محمد بن عمر التونسي نفسه من خبرة بأحوال هذه البلاد خلال إقامته بها . وبما يسر للتونسي التعرف على نواحي الحياة فى البلاد ، سهولة التخاطب مع كافة الطبقات باللغة العربية ، التى لا يجهلها سوى القليل من أهل دارفور ، وأتيح للتونسي — بما ناله أبوه عمر من مكانة ، لدى السلطان والأمراء والوزراء والفقهاء وكبار التجار كذلك ، أن يكون من ذوى الحظوة لديهم جميعاً ؛ فحضر مجالس السلطان ، ووقف على كثير من أسرار السياسة ، وتقاليد البلاط ، ونظم الحكم والإدارة والقضاء ، وشهد بنفسه بعض الحوادث السياسية والحربية الهامة . وأتيح للتونسي أن يتجول فى كل أنحاء دارفور فى حرية تامة ، وأن يمر بمدنها وقراها وأسواقها ، وأن يدخل المناطق الجبلية الوعرة ، التى لا يسمح لأحد الدخول فيها إلا بإذن من السلطان ، وهى المناطق التى يسكنها « أعجم الفور » على حد قول التونسي . ولذا تتميز كتابات التونسي عما شهد فى هذه البلاد — رغم حداثة وقتذاك — بالدقة وقوة الملاحظة ، والقدرة على النفاذ إلى أعماق الأمور . وبذا استطاع التونسي ، أن يدرس حياة الناس على اختلاف سلالاتهم وطبقاتهم ولغاتهم دراسة عملية دقيقة .

حاول بعض الباحثين التعرف على مراحل تاريخ دارفور القديم ولكن

جهودهم في هذا الميدان ، لم تأت بنتائج ذات بال . ومن ثم فإننا لا نعرف عن تاريخ دارفور القديم شيئاً على وجه التحقيق ، وربما تكشف الأبحاث الأثرية في المستقبل عما غمض من تاريخ ذلك العصر .

ويظهر أن ثمة علاقة نشأت بين إقليمي كردفان ودارفور من ناحية وبين دولة كوش من ناحية أخرى وربما كان هذا هو السر في أن الجماعات التي تتحدث اللغة النوبية في كردفان ودارفور ، تحاول دائماً أن تستعيد ماضيها وعلاقتها بدولة كوش بتمسكها بأصلها القديم ، باعتبارهم « أهل كوش » ، أو « ناس كوش » أو « كاش » التي تقابل « كاج » . ومن هؤلاء جماعات « كاجدى » Kajiddi في الطرف الجنوبي من جبل « كاجا » في شمال كردفان . ويؤمن هؤلاء الكاجدى أنهم أتوا من ناحية الشرق بقيادة ملكة ، وأن هذه الملكة مدفونة في قبر قريب من جبل كابويجا Kaboija في الطرف الجنوبي الشرقي من جبل ميدوب ، وليس من المستبعد أن تكون الأسرة المالكة في كوش ، أو فروع منها ، لجأت إلى الأقاليم الغربية من دولتهم المنهارة ، عقب سقوط عاصمتهم مروى في منتصف القرن الرابع الميلادي على يد عيزانا ملك أكسوم ، وأن الجماعات التي تتحدث اللغة النوبية في كردفان ودارفور ترجع أولى هجراتها إلى هذا العهد (١) .

وتذكر روايات أهل البلاد أن الدايجو أول من أسس دولة في إقليم دارفور ، ثم تلاهم التنجور ، ثم أسرة كيرا من الفور ، ومن هذا الاسم الأخير جاء اسم سلطنة دارفور .

أما الدايجو فأصلهم غير معروف تماماً ، ويذكر الرحالة بارت ، أنهم كانوا في زمنه (١٨٤٩ — ١٨٥٥ م) يطلقون على أنفسهم « ناس فرعون » ويرى أنهم جاءوا من إقليم فازوغلي جنوبي سنار (٢) ، على حين أن آر كل — اعتماداً

Arkell, A.J.: A History of the Sudan, pp. 174-178.

(١)

Barth, H.: Op. Cit., p. 426.

(٢)

على ما ذكره براون — يرى أنهم من البربر الذين جاءوا من الشمال، من تونس (١) أما التونسي فيجعلهم أحد الشعوب الخمسة القديمة الرئيسية لسكان دارفور (٢) والراجح أن الداجو سلالة سودانية قديمة، غير أنهم مدينون في قيام دولتهم هذه إلى مهاجرين أرقى منهم حضارة، وأنشأ أولئك المهاجرون طبقة حاكمة خضع لها الداجو. وليس من المعروف تماماً مصدر هذه الطبقة الحاكمة، وينتاب على الظن أنها جاءت من الشرق، أي من وادي النيل، فإن توزيع جماعات الداجو. وامتدادهم من الشرق إلى الغرب، قد يساعد على هذا الاستنتاج ذلك أن للداجو مواطن موزعة بين كردفان ودارفور وداصليح، وفي إقليم بحيرة تشاد (٣).

ويذكر كل من Arkel (٤)، Palmer (٥) أن الداجو هم «التاجوين» الذين ورد ذكرهم في مؤلفات الإدريسي وابن سعيد والمقرئزي وابن خلدون، وأنهم كانوا يقطنون في المدة بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، على مقربة من قبيلة الزغاوة وغربي الواحات المصرية، بين النسوبة في الشرق والسكانم في الغرب.

وأشار الإدريسي إلى مدينتين في بلاد التاجوين أو الداجو: إحداهما تاجوه، وهي غير معروفة، والأخرى سمينة. وربما كانت هذه البلدة الأخيرة تقع في تلال سيمييات على بعد عشرين ميلاً شرقي مدينة الفاشر الحالية، حيث يعيش جماعة تعرف بهذا الاسم، ثم انتقلت جماعات سيمييات إلى حدود واداي، وهناك عرفوا باسم سيمييار Simyar ويزعم هؤلاء الانتساب إلى الداجو القدماء. ويذكر

Arkel, A.J.: Op. Cit., pp. 62-70. (١)

(٢) التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ١٢٧.

MacMichael, H.A.: Op. Cit., pp. 71-76. (٣)

Palmer, H.R.: Bornu, Sahara and Sudan, p. 212. (٤)

Arkel, A.J.: S.N.R., Vol. XXXII, Part 1, pp. 62-70. (٥)

الإدريسى ، أن أولئك التاجوين — الداجو « مجوس لا يعتقدون شيئاً » (١) .

أما التنجور — الذين تذكر روايات أهل البلاد أنهم خلفوا الداجو في حكم دارفور — فقد اختلفت الآراء حول أصلهم . فقبل إنهم من عرب بني هلال من شمال إفريقيا (٢) ، ورأى آخر يقول إنهم من بقايا العباسيين الذين هاجروا إلى السودان بعد زوال دولتهم (٣) . ويذكر بارت أن التنجور من النوبيين الذين هاجروا من دنقلة إلى دارفور ومدوا نفوذهم على وادى ، وأرغموا الكاثم أحياناً على دفع الجزية (٤) . ويرى آر كل أن التنجور من التبو ، وأنهم هاجروا من إقليم تبستي تحت ضغط بني هلال في شمال إفريقيا ، ومن ثم حدث خلط في النسب بين التنجور وبين بني هلال (٥) . أما ما كيا كل ، فلا ينفى صلة التنجور ببني هلال ، ولا يستبعد أن تكون بعض العناصر النوبية والعربية من بني هلال ، هاجرت من بلاد النوبة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد إلى دارفور ، حيث عرفوا بإسم التنجور . ومما يؤيد صلتهم ببلاد النوبة ، أن إسم تنجور في اللغة النوبية معناها قوس ، وهو الإسم الذى عرفت به بلاد النوبة في العصور القديمة « تاستى » أى بلاد القسسى ثم أنه لا يزال هناك مكان جنوبي وادى حلغا الحالية يحمل إسم تنجور حتى الوقت الحاضر (٦) . وكيفما كان الطريق الذى سلكه التنجور إلى إقليم دارفور ، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب أو النوبيين أو التبو ، فالمعروف أن أولئك التنجور ، لم تكن لهم — فى المائتى سنة الأخيرة — لغة سوى اللغة العربية (٧) ، ومهما قيل فى شأن اللغة التى كانوا يتحدثون بها من قبل ، أو أنهم نسوا اللغة القديمة ، وتمسكوا بالعربية ، فإن هذا

(١) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٢ .

Slatin: Fire and Sword in the Sudan, p. 38. (٢)

C/f Balfour-Paul; H.G.: Op. Cit., p. 10. (٣)

Barth, H.: Op. Cit., pp. 429-430. (٤)

Arkell, A.J.: S.N.R.: Vol. XXXII, pp. 207-218. (٥)

MacMichael, H.A.: Op. Cit.: p. 66. (٦)

Balfour - Paul, H.G.: Op. Cit., p. 10. (٧)

لا ينفى — على الأقل — صلتهم بالعناصر العربية ، التي كانت فيما يبدو — تمثل طبقة حاكمة تعتمد على قاعدة من العناصر غير العربية ، قد تكون من النوبة أو من البدايات .

ومعظم الآثار التي عثر عليها في مدينتي أورى وعين فرح شمال دارفور تنسب إلى التنجور ، ويدل هذا على أن التنجور بسطوا نفوذهم على شمال دارفور ، ولم يمتد إلى جنوبها . ومن المحتمل أن مملكتي الداخو والتنجور قامتتا جنباً إلى جنب ، حتى القرن السادس عشر للميلادى . وتدل بقايا آثار المساجد والقصور الملكية المبنية بالطوب الأحمر على أن الإسلام امتد إلى دارفور على عهد التنجور . غير أن سلطان التنجور لم يستمر على ما تغلبوا عليه في دارفور طويلاً . وربما كان مرجع ذلك إلى أن ضغطاً وقع عليهم من الشمال ، أو إلى أنهم توسعوا في بسط نفوذهم ، حتى وصلوا غرباً إلى وادى ، وبدا تخليخل سلطانهم على دارفور بعد مضي قرنين من مقدمهم إليها (٢) .

وعلى الرغم من أن الإسلام أخذ يشق طريقه إلى هذه البلاد ، منذ حوالى القرن الثالث عشر للميلادى على الأقل ، حيث أخذت تنهال عليه الهجرات العربية من الشمال والشرق والغرب ، فإن الإسلام لم يصبح الدين الرسمى للبلاد إلا حين تولى سليمان سولونج من أسرة كبرى عرش سلطنة دارفور حوالى عام ١٦٤٠ م . أما كيف انتقل الملك من التنجور إلى أسرة كبرى من الفور ، فهذا موضوع اختلفت فيه الآراء كذلك .

يذكر التونسي أن الفور — سكان جبل مرة الأصليين ينقسمون إلى ثلاث شعب هي : الكنجارة والتموركة والكرى كريت (٣) . لكن الكنجارة

Ibid : Op. Cit., p. 11:

(١)

Lampen, G.D. : Op. Cit., p. 183.

(٢)

(٣) التونسي : نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

يمتازون على غيرهم من القور بوجود الدماء العربية في عروقهم^(١) . وتذكر روايات أهل البلاد أنه وفد على بلاد دارفور قبل القرن السابع عشر الميلادي ، جماعة من عرب بني هلال بقيادة أحمد المعقور من نسل أبي زيد الهلالي ، وصاهروا الكنجارة ، ونشأ في الكنجارة أسرة تسمى أسرة كيرا ، استطاعت بقيادة زعيمها سليمان سولونج أن تؤسس سلطنة دارفور^(٢) . وثم رواية تقول إن سليمان سولونج عربي من قبيلة بني هلال ، وتزوج أميرة من القور^(٣) . ورواية ثالثة تقول إنه ابن أحمد المعقور من بني هلال ؛ أو من سلانته^(٤) . ورواية رابعة تقول ، إنه سبق حكم سليمان هذا أربعة عشر سلطاناً يحملون أسماء عربية^(٥) . ومما زاد هذه الروايات اضطراباً ، إدعاء كل من الكنجارة والتنجور الانتساب إلى بني هلال^(٦) .

والراجع أن الكنجارة ، — وهم خليط من العرب والقور — صاهروا التنجور ، ونشأ عن هذه المصاهرة ، ظهور أسرة كيرا ، وهي الأسرة التي انتزعت حكم دارفور من التنجور . ويبدو أن السلطان دالي أول سلاطين هذه الأسرة ، ثم خلفه ابنه كورو ، ثم سليمان سولونج . وظلت هذه الأسرة تحكم دارفور حتى نهاية حكم علي دينار عام ١٩١٦ .

السلطان سليمان سولونج (١٦١٠ — ١٦٧٠م) :

ينحسب على الظن أن سليمان كان من أب أجنبي وأم من كيرا وعلى كل حال فإن لقب سولونج — الذي عرف به سليمان — معناه في لغة القور « العربي »

MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 91. (١)

Balfour-Paul, H.G. : Op. Cit., p. 92. (٢)

(٣) شفيرة : (نفس المصدر ٢ ، ص ١١٢) .

Nachtigal, G. : Op. Cit. : Vol. III, pp. 256-360. (٤)

MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 92 n. (٥)

أو من يتكلم العربية أو من يدين بالإسلام دين العرب (١) . وفي هذا دليل على اتصال سليمان بالنسب العربي .

نشأت أسرة كبيرة هذه في ترة على مقربة من جبل مرة بأواسط دارفور . وفي هذه المنطقة ، عثر على بقايا قصور حصينة ترجع إلى عهد أولئك السلاطين الثلاثة الذين بدأ بهم بيت كيرا ، وإلى الشرق من ترة ، توجد بقايا قصر آخر ينسب إلى زعيم اسمه توتسام (٢) . وتذكر روايات الفور أن توتسام هذا كان أخاً لسليمان ، ويبدو أنه كان يريد السلطنة لنفسه ، فخاربه سليمان سولونج وهزمه وطرده من دارفور . فلجأ هذا الزعيم الطريد إلى كردفان ، وهناك أسس سلطنة المسبعات (٣) . ويقال إن المسبعات في لغة الفور معناها « الناس الذين ذهبوا إلى الشرق » (٤) .

اتخذ سليمان سولونج بلدة نامي في إقليم ترة عاصمة لدولته ومن هذه المنطقة قام سليمان بعدة حملات حربية على ما جاوره من أقاليم . واستطاع سليمان بعد معارك بلغ عددها ثلاثاً وثلاثين ، أن يحقق للبلاد وحدتها ، وأن تخضع لسلطانه جماعات البرقد والزغاوة والبرقي والبيقو وبعض المساليط ، كما قضى على محاولة قام بها التنجور لاسترداد ملكهم المسلوب . ثم تفرغ سليمان لبناء سلطنته على أسس سلمية باستئناف حركة نشر الإسلام ، التي يحتمل أن يكون أصابها الركود أثناء فترة الحروب الأهلية (٥) .

وفيما يلي قائمة بأسماء سلاطين دارفور . من سليمان سولونج فصاعداً :

(١) سليمان سولونج (١٦١٠ — ١٦٧٠ م) .

Lampen, G.D. : Op. Cit., p. 185, MacMichael, H.A., Op. Cit., p. 92. (١)

MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 93. (٢)

Ibid : Op. Cit., κ/f. Arkell, A.G. : S.N.R., Vol. XXXII, Part I, p. 46. (٣)

Ibid : Op. Cit., p. 46. (٤)

Lampen, G.D. : Op. Cit., pp. 184-185. (٥)

- ٢ (موسى بن سليمان سولونج (١٦٧٠ - ١٦٨٢ م) .
- ٣ (أحمد بكر بن موسى (١٦٨٢ - ١٧٢٢ م) .
- ٤ (محمد دورا بن أحمد بكر (١٧٢٢ - ١٧٣٢ م) .
- ٥ (عمر ليل بن محمد دورا (١٧٣٢ - ١٧٣٩ م) .
- ٦ (أبو القاسم بن أحمد بكر (١٧٣٩ - ١٧٥٢ م) .
- ٧ (محمد تيراب بن أحمد بكر (١٧٥٢ - ١٧٨٧ م) .
- ٨ (عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر (١٧٨٧ - ١٨٠٢ م) .
- ٩ (محمد فضل بن عبد الرحمن الرشيد (١٨٠٢ - ١٨٣٩ م) .
- ١٠ (محمد حسين بن محمد فضل (١٨٣٩ - ١٨٧٤ م) .
- ١١ (إبراهيم بن محمد حسين (١٨٧٤ - ١٨٧٥ م) .

دارفور تحت حكم الإدارة المصرية

في السودان (١٨٧٥ - ١٨٨٣ م) .

السلطان موسى : (١٦٧٠ - ١٦٨٢ م) لم تذكر عنه روايات الفور شيئاً يستحق الاهتمام . ويبدو أن هذا السلطان كان ميالاً إلى ، على عكس أبيه سليمان ، غير أنه اضطر مع هذا إلى أن يحارب جماعات القمر والمسبمات (١) .

السلطان أحمد بكر (١٦٨٢ - ١٧٢٢ م) حكم هذا السلطان بلاد دارفور أربعين عاماً ، وأحبته رعيته لما اشتهر عنه من الحزم ، وإليه يرجع الفضل في تعميم الإسلام في بلاد دارفور . ويبدو أن الإسلام في عهد سلفه لم يتعد الأسر المالكة أو الأسر الكبيرة ، التي اتصلت بالنسب العربي . ولذلك اعتنى

هذا السلطان ببناء المساجد والمدارس ، واستقدم عدداً من المشايخ من مختلف البلاد الإسلامية ، ومنحهم أراض وأعمام من الضرائب . عاش السلطان أحمد بكر مدة في بلدة قرلي في دار كرنة ، ثم تنقل ببلاطه وحاشيته إلى بلدة مرة في دارفيا ، ثم إلى أبوعسل في منطقة ترة . ولم يخل حكم هذا السلطان من حروب ، أولها حرب دامت سبع سنوات لإخضاع جماعات القعر ، واستعان أحمد بكر بأمرأه الماليك في مصر لإمداده بالأسلحة لدفع إغارات أهل واداي بقيادة ملكهم عاروسي على حدود دولته ، فأحرز عليهم نصراً عند كبكائية (١) . ويبدو أن اسم كبكائية مستمد من اسم هذه المعركة . وذلك أن لفظ كبكائية - في لغة الفور - مركب من كلمتين كبي - كابية ، ومعناها « ألقوا دروعهم هارين » (٢) .

محمد دورا (١٧٢٢ - ١٧٣٢ م) ورث هذا السلطان عن أبيه أحمد بكر شجاعته وحزمه ، لكنه أضاف إلى هاتين الصفتين صلة القسوة والوحشية ، بدليل قتله كثيراً من أخوته (٣) ، وشنه الحرب على ابنه موسى عنجريب . وتوفي محمد دورا هذا بعد مرض طويل بداء البرص (٤) .

عمر ليل (١٧٣٢ - ١٧٣٩ م) خلف أباه السلطان محمد دورا على عرش دارفور . ويقول شقير، إنه من أعدل سلاطين دارفور وأشدهم محافظة على الكتاب والسنة (٥) . ونقل عمر فاشرة إلى بلدة كوجورما على بعد عشرين ميلاً غربى كبكائية . ويذكر لامبين "Lampen" أنه لقب بعمر ليل ، أى عمر الحمار لأنه كان قاسياً ، فضلاً عن أطاعه الحربية التوسعية في إقليم واداي

Nachtigal, G.: Op. Cit., p. 367. (١)

C/f El Tounsi : Voyage au Ouday, pp. 77-82.

Lampen G.D.: Op. Cit., p. 185. (٢)

(٣) شقير : نفس المصدر ص ١١٥ .

Lampen, G.D.: Op. Cit., p. 185. (٤)

(٥) شقير : نفس المصدر ص ١١٥ .

إلى ضيجر أهل دارفور من حكمه ، ومات السلطان عمر أسيراً في واداي (١) .

أبو القاسم (١٧٣٩ - ١٧٥٢ م) هو ابن السلطان أحمد بكر . خلف ابن أخيه عمر ليل في حكم دارفور ، وبدأ عهده بمحاربة طبقة الأرقاء دون الأحرار ، وامنلات وظائف الإدارة والحكم بالعبيد ، فكره الناس حكمه . وعزم على الانتقام لسلفه عمر ليل من أهل واداي . وأدى اختفاؤه وإشاعة قتله في المعركة إلى تنصيب أخيه محمد تيراب عرش السلطنة .

ولما ظهر أبو القاسم ، بعد شفائه على أيدي بعض الأعراب الذين آووه ، أبي كبار رجال الدولة أن يتنازل تيراب لأخيه عن السلطنة ، وما زالوا به حتى وافق على خنقه (٢) .

محمد تيراب (١٦٥٢ - ١٧٥٧ م) برهن السلطان محمد تيراب على أنه سلطان ممتاز ، فاستحق من أجل ذلك الاحترام في الداخل والخارج . غير أنه أثار غضب بعض رؤساء القبائل في دولته لميله إلى جماعات الزغاوة التي كانت منها أمه ، فعين خاله سلطاناً على فرع من فروع الزغاوة ، كما عين عدداً من أفراد هذه القبيلة في المناصب العليا في دولته . وتنقل السلطان تيراب بفاشرة بين قرلي وكوجورما وشوبا ، وكلها تقع بالقرب من مدينة كيكابية . وربما كان الدافع له على ذلك ، مراقبة حركات أهل واداي بالقرب من الحدود الغربية لدولته . ثم نقل السلطان تيراب فاشرة مرة رابعة إلى الريل جنوب شرقي دارفور ، وذلك على أثر ثورة قامت بها جماعات البرقد ضده . ويرجع سبب هذه الثورة إلى ماشاع بين البرقد ، من أن السلطان تيراب يقوم ببيع بناتهم اللاتي كان مفروضاً إلحاقهن بحريم السلطان وجواريه وخدمته (٣) . وسواء أكان انتقال السلطان بفاشرة

Lampen, G.D.: Op. Cit., 00. 185-186.

(١)

Nachtigal, G.: Op. Cit., 00. 373-374.

(٢)

(٣) أنظر التونسي : تشحيذ الأذهان ص ٦٩ ، ٧٠ .

Lampen, G.D.: Op. Cit., p. 186.

إلى الناحية الجنوبية الشرقية من دولته بسبب ضغط هذه الثورة عليه أو الاستعداد لحرب الرزيقات والمسبعات ، فالمعروف أنه قام بهذه الغزوات على هاتين الجماعتين ، بعد القضاء على ثورة البرقد .

أما عن حرب المسبعات ، فإن التونسي شرح في كتابه علاقة سلاطين دارفور بسلاطين المسبعات شرحاً وافياً ، وتعرض لتفاصيل هذه الحرب أسبابها ونتائجها . فيذكر التونسي أن سليمان سولونج الجسد الأول لسلاطين دارفور ، كان له أخ اسمه المسبع^(١) . واتفق الأخوان على تقسيم إقليم دارفور وكردفان فيما بينهما . فكانت دارفور من نصيب سليمان ، وكردفان من نصيب المسبع . وتعاهد الأخوان أن لا يخون أحدهما الآخر . وظل الأمر على هذه الحال في أعقابهما من بعدها . ولما تولى السلطان تيراب عرش دارفور ، كان يلي كردفان من نسل مسبع السلطان هاشم المسبعاوى . فقام السلطان هاشم بشن الإغارات على أطراف سلطنة دارفور أملاً في غزوها . فبعث السلطان تيراب إلى قريبه السلطان هاشم ، رسالة جاء فيها : « بعد السلام : يا ابن عمي ، أرسلت سراياك على أطراف بلادى ، وأنت تعلم ما بيننا من المودة ، ولم يقع منا ما يخالف المودة ، مع أنك تعلم أن الدين أخذت أموالهم مسلمون ، والذين قتلوا موحدون ، وهذا الفعل لم يبيحه (كذا) أحد ، ولا يفعله عاقل ، فإذا وصلت كتابي هذا ، فانتبه ، وإلا سيلقى الباغى مصرعه والسلام » . غير أن السلطان هاشم لم يستجب لهذا النداء ، وواصل عدوانه على دارفور . فاستعد السلطان تيراب لملاقاته بجيش كثيف ، وعهد إلى ابنه إسحاق أن يقوم مقامه في حكم دارفور أثناء غيابه عنها . وسار تيراب بجيشه قاصداً كردفان^(٢) .

(١) لفظ المسبع هنا لقب لتوتسام أخى سليمان سولونج ، ومعناها في لغة الفور : الذى اتجه نحو الشرق .

(٢) التونسي : تشعيد الأذهان ، ص ٧٨ — ٨٦ .

أما السلطان هاشم فإنه لما علم بقدم تيراب بجيش لا قبل له بمواجهته فر بحاشيته وأسرتة إلى ملك سنار بعد أن فارقة أكثر رجاله (١) . وأخذ السلطان تيراب يطارد السلطان هاشم حتى وصل إلى قرب موضع أم درمان الحالية . وهناك التقى بجيش العبد اللاب من قبل ملك سنار . ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة العبد اللاب وفرارهم وظفر تيراب بنحاسهم المعروف بالمنصورة (٢) . وكان لاستيلاء الفور على نحاس العبد اللاب — حلفاء الفرنج بسنار — مغزى سياسى وحرى عظيم الأثر . واحتفظ سلاطين الفور بهذا النحاس من بعد ، وغدا تجليد هذا النحاس والاحتفال به سنوياً ، عيداً من أعياد الفور ، القومية (٣) .

أما السلطان تيراب ، فإنه عزم على الزحف إلى سنار ، لكنه لم يستطع عبور النيل ، ومن ثم ظل فى أم درمان مدة يدبر خلالها الوسائل لاجتياز النهر ، فلم يفلح ، فسئمت نفوس رجاله الانتظار ، وسألوه العودة إلى بلادهم ، فلم يستجب لندائهم ، وأقسم ألا يرجع إلى دارفور إلا برأس هاشم (٤) . وهنا أخذ بعض رجال دولته يدبرون المؤامرات للتخلص منه . واشترك فى هذه المؤامرات والد إحدى زوجاته ويدعى على ورد برقو . غير أن خبر هذه المؤامرة وصل إلى تيراب ، فتخلص من المتآمرين (٥) . وظل السلطان تيراب مدة فى أم درمان ، حتى مرض مرضاً شديداً ، فحمله رجاله وعادوا به إلى دارفور ، واسكنه مات فى بارة ، فحفظوه وحملوه إلى جبل مرة ودفن فى مقابر السلاطين بتره .

وعلى الرغم من أن السلطان تيراب كان رجلاً متنوراً ومثقفاً ، وأنه كان دائب السعى إلى استيراد الكتب من مصر وتونس ، إلا أنه أخذ عليه الميل إلى

(١) التونسى : نفس المصدر ص ٨٠ .

(٢) شقيرة : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٣) التونسى : نفس المصدر ١٥٦ — ١٥٩ .

(٤) شقير : نفس المصدر ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٥) التونسى : نفس المصدر ، ٨١ — ٨٣ .

النساء والخمر ، فضلاً عن حب الحروب ذات المجهود الضائع ، وعدم المبالاة بشعور قومه وكرامتهم . من ذلك ما يروى عن استهتار أولاده بشعور الناس . فقد كان الواحد منهم لا يسافر إلا راكباً على ظهور الرجال بدلاً من الدواب ، حتى ضاقت نفوس أهل دارفور منهم . ولما تقدم الناس بالشكاوى إلى تيراب ، لم يلتفت إليها وقال « إني لأعجب كيف أن رعيتي لا تصبر على أولادي ، فإذا أتوا أقل شيء لا يرضيهم شكوهم إلى . فامتنع الناس عن الشكوى وسلموا أمرهم إلى الله . وربما كان هذا الضيق هو الذي جعل أهل دارفور يترددون في إقامة ابنه اسحاق في السلطنة من بعده ، وذلك على الرغم من أنه أوصى بأن يؤول إلى اسحاق هذا ملك دارفور من بعده ولقبه بالخليفة . ولما توفي تيراب^(١) ، كان بدارفور وقتذاك ثلاثة من أبناء السلطان أحمد بكر . ورأى كل منهم أنه أحق من غيره ومن اسحاق بملك دارفور . واستغل هذه الحالة خصى يدعى محمد كرا ليتمكن لنفسه ، وكان من المقربين في البلاط السلطاني . وكانت أولى خطواته في هذا السبيل أنه ساعد على تفضيل أصغر أبناء السلطان أحمد بكر ، وهو عبد الرحمن الرشيد^(٢) . فلما نجحت هذه الخطوة ، زحف هذا الخصي الماهر نحو البلاد التي أعتمهم فيها اسحاق وهزمه تبادلية وتلدوا ، وطارده إلى شمال دارفور ، ثم لحقت بإسحاق الهزيمة الهائلة غربى كيكابية . بذنا صفا الجواللسلطان الجديد^(٣) .

ويعتبر عصر عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٧ — ١٨٠٢ م) صفحة جديدة

في تاريخ دارفور . إذ شجع هذا السلطان الجلابة الأجانب (التجار) على دخول دارفور ، فازدهرت التجارة في عهده ، ونشأت عدة مدن تجارية تضم وكالات

(١) التونسى : نفس المصدر ص ٧٩ — ٨٠ .

عرف السلطان عبد الرحمن الرشيد باسم اليتيم كذلك .

(٢) أنظر التونسى : ص ٩٢ ، شقير : نفس المصدر ، ص ١٢١ .

(٣) التونسى : نفس المصدر ص ٨٦ — ٩٢ .

للتجار (١) كما نشطت تجارة القوافل مع مصر عن طريق درب الأربعين (٢) .
ثم أن عبد الرحمن الرشيد شجع الفقهاء وأغدق عليهم . وكان عمر التونسي —
أبو الرحالة العربي المشهور محمد بن عمر التونسي — ممن ظفروا بعطف السلطان
ورعايته ، فمنحه إقطاعاً كبيراً في منطقة أبي الجدول (٣) . وفي عهده زار الرحالة
الإنجليزي براون دارفور ، ثم زارها في عهد سلفه السلطان محمد فضل ، الرحالة
العربي محمد بن عمر التونسي ، كما سبق أن ذكرنا . وسجل هذان الرجلان
ملاحظتهما عن أحوال البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقتذاك . ولذا
كان عهد عبد الرحمن الرشيد أوضح عهود سلاطين دارفور .

جعل السلطان عبد الرحمن الرشيد فاشرة في تندلتي (٤) ، وظلت تندلتي
هذه — التي اشتهرت فيما بعد بإسم الفاشر — عاصمة السلطنة في عهده وعهد
خلفه لتكون قريبة من إقليم كردفان وهو الإقليم الذي أصبح مجالاً لتوسع
سلطنة دارفور وامتدادها شرقاً .

وأهم حادثة سياسية في عهد عبد الرحمن الرشيد ، حربه ضد السلطان هاشم
في كردفان ، وهو السلطان الذي كاد أن يمحو سلطنة دارفور بما أحرزه
من انتصارات على جيوشها ، لولا مهارة محمد كرا الذي جعله السلطان نائباً عنه
في حكم كردفان بعد انتصاره على السلطان هاشم (٥) .

ويبدو أن السلطان عبد الرحيم الرشيد كان شديد الحرص على استمرار سير القوافل
التجارية بين مصر ودارفور . غير أن بعض أمراء الممالك في مصر دأبوا على التعرض

(١) Browne, W.G.: Op. Cit., pp. 234-236.

(٢) التونسي : نفس المصدر ص ٣٨ — ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٤) التونسي : نفس المصدر ص ٦٠ — ١٠٧ .

(٥) التونسي : نفس المصدر ص ٢١ — ١٢٢ .

لهذه القوافل وتعطيل سيرها . ولذا فإن عبد الرحمن الرشيد بادر بتهنئة نابليون عقب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر وانتصاره على أمراء المماليك ، وذلك حرصاً من عبد الرحمن الرشيد على استمرار سير هذه القوافل ، ولا سيما بعد أن أعلن نابليون احترامه للدين الإسلامي . فرد عليه نابليون بكتاب يطمئنه فيه على استمرار سير القوافل ويطلب منه إرسال ألفي عبد من العبيد الأشداء^(١) .

وعلى الرغم من السلطان عبد الرحمن الرشيد كان موتورا من سلوك بعض أمراء المماليك ، فإنه رحب بمقدم أحد أولئك الأمراء واسمه زوانا كاشف ، وذلك حين هرب هذا المملوك من وجه الفرنسيين ، وطلب من السلطان حمايته . فمنحه السلطان إقطاعاً ، وسمح له ببناء قصر إلى جوار قصره . غير أن زوانا كاشف هذا فكر في إقامة نفسه سلطاناً على دارفور ، وجمع حوله الأنصار ، واستعد لحرب عبد الرحمن الرشيدى . لكن السلطان تمكن من القبض عليه وقتله قبل أن يشرع هذا المملوك في تنفيذ ما دبر من خيانة وعدر^(٢) .

وفي هذا العصر لمع نجم شخصية فوراوية ، لم تلبث أن احتلت مكاناً بارزاً في تاريخ دارفور على عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد وابنه السلطان محمد فضل من بعده . وإسم هذه الشخصية محمد كرا^(٣) .

التحق محمد كرا هذا — أول الأمر — بحرس السلطان تيراب ، ثم غدا مشرفاً على تربية أولاده في القصر السلطاني^(٤) . ويقال إنه خصى نفسه بيده ليدفع عن نفسه تهمة خيانة سيده^(٥) . فألحقه السلطان تيراب بخدمة أحد وزرائه ،

(١) شقير : نفس المصدر ، ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) التونسى : نفس المصدر ، ص ١١١ — ١٩٥ .

(٣) لفظ كرا معناه في اللغة الفواروية « الطويل » التونسى ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٧٤ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٥ .

فأظهر محمد كرا كفاية ممتازة ، وتمكن بمهارته أن يساعد السلطان عبد الرحمن الرشيد في الوصول إلى عرش دارفور بعد وفاة أخيه السلطان تيراب (١) . فعينه والياً على إقليم كردفان بعد الاستيلاء على هذا الإقليم من هاشم المسبعاوى . ولقد اتهم محمد كرا أثناء ولايته على كردفان بعدم الولاء للسلطان عبد الرحمن الرشيد ، والسعى لانتزاع السلطنة منه . فأرسل السلطان حملة إلى كردفان لإحضاره حياً أو ميتاً . ولما علم محمد كرا بما أمر به السلطان عبد الرحمن ، أحضر سلاسل ووضعها في يديه ورجليه وطلب إلى رجال الحملة أن يقودوه مقيداً إلى تندلتي الفاشر حيث يقيم السلطان . وبذا اقتنع السلطان عبد الرحمن بولاء محمد كرا له فرفعه وقربه ، وعينه في منصب الأب شيخ وهو أعظم المناصب قدراً في دارفور ، بعد منصب السلطان (٢) . وكان من عادة الخصيان هؤلاء الأولاد ، لينتفى عنهم من أرامل ذوات أولاد ، فيتبنى أولئك الخصيان هؤلاء الأولاد ، لينتفى عنهم مذلة الخصاء ولو ظاهراً . ولم يشذ الأب شيخ محمد كرا عن هذه القاعدة ، فتزوج من امرأة لها ابن اسمه شيلفوت (ومعناه في لغة الفور « خذ واذهب ») وكان شيلفوت هذا من الفرسان المعدودين ، فاعتمد عليه الأب شيخ محمد كرا اعتماداً كبيراً في توطيد سلطانه (٣) .

توفي السلطان عبد الرحمن الرشيد سنة ١٨٠٢ م تاركاً ابناً صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وإسمه محمد فضل . وقد نجح الأب شيخ محمد كرا مرة ثانية في إقامة محمد فضل مقام السلطان المتوفى ، وذلك على الرغم من كثرة عدد المطالبين بعرش دارفور وقتذاك . وأعقب الأب شيخ هذا العمل بالقبض على المطالبين بعرش السلطنة وأنصارهم . ويقال إن عدد من قبض عليهم وقتلهم بلغ نحو ستين رجلاً . ولم يبق من أولئك المطالبين بعرش دارفور وأنصارهم سوى

(١) المصدر السابق ص ٨٧ — ٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٨ — ٢٣٩ .

عدد قليل ، رأى الأب شيخ أن يسجنهم في جبل مرة (١) . وبذا أصبح الأب شيخ محمد كرا الحاكم المطلق في دارفور ، وطغى نفوذه على نفوذ السلطان وظل الأب شيخ على هذه الحال حتى دلالات السلطان محمد فضل يفكر في التخلص من وصايته عليه . فاعتصم الأب شيخ في ناحية من نواحي تندلتى — الفاشر . ولم يلبث أن صار سجيناً في تلك الناحية ، ثم منع السلطان عنه الماء ، وشن عليه هجوماً انتهى بقتله وقتل ربيبة شيلفوت كذلك (٢) .

أما السلطان محمد فضل (١٨٠٢ — ١٨٣٩ م) فإنه استفتح عهده بتحرير قبيلة البيقو ، التي كانت أمه منها ، وحرّم أخذ الرقيق وبيعه من هذه القبيلة . بيد أن السلطان محمد فضل اتصف من ناحية أخرى بالمغالاة في معظم نواحي حياته وأخلاقه ، من حيث الانغماس في اللهو ، والتطرف في معاداة الناس . وازدادت هذه الصفات عمقاً في نفسه كلما تقدمت به الأيام ، حتى صار أواخر عهده رجلاً قاسياً محباً للانتقام . وعرف عنه التطرف في معاملة القبائل العربية بالقسوة ، وكاد أن يقضى على بني هلبة على العريقات والرزيقات كذلك (٣) .

وفي عهده استؤنفت الحرب بين دارفور وواداي ، وانتهت هذه الحرب بصلح اشترك محمد بن عمر التونسي في المفاوضات التي أدت إلى عقده .

أما في الناحية الشرقية من سلطنة دارفور ، وتقصّد بها إقليم كردفان ، فقد جرت فيها المقادير على عكس ما يشتهي السلطان محمد فضل . إذ ارتبط مصير هذه الولاية بمصير بقية أقاليم السودان الأخرى التي فتحها إسماعيل بن محمد على سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١ م . فلم تكد حملة إسماعيل تغادر دنقلة في طريقها إلى بربر

(١) التونسي : المصدر نفسه ص ١٢٣ — ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ — ٦٨ .

(٣) Lampen, G.D.: Op. Cit., pp. 187-188.

(٣)

ثم إلى سنار عاصمة مملكة الفوننج ، حتى قام قسم من الحملة الرئيسية بقيادة محمد بك الدفتردار صهر محمد علي — لفتح كردفان . ولما علم المقدم مسلم ، وإلى كردفان من قبل السلطان محمد فضل بأمر هذه الحملة ، عقد العزم على مقاومتها ، وتمادى في ذلك على خيالة كردفان ومشاة دارفور . وتبادل الدفتردار والمقدم مسلم الرسائل . فالأول يطالب بالتسليم صلحاً ، على حين أن الثاني يصر على المقاومة مهما كلفه الأمر . وبذا لم يكن بد من الحرب والقتال . والتقى الفريقان بالقرب من باره ، حيث نشبت معركة بين قوتين غير متكافئتين من حيث نوع الأسلحة . فالقوات المصرية كانت تعتمد على الأسلحة النارية التي لم تكن معروفة في السودان حتى ذلك الحين . وبذا حلت بالمقدم مسلم الهزيمة (١) .

وحاول السلطان محمد فضل استرداد كردفان . فلم يقدر له النجاح . وبذا غدا همه محصوراً وقتذاك في الدفاع عن دارفور ، ضد أي قوة يحتمل مجيئها من ناحية الشرق ، ولا سيما بعد خروج أخيه الأمير أبي مدين عليه وهروبه إلى مصر (٢) .

حاول هذا الأمير إقناع ولاية الأمور في مصر بفتح دارفور وتعيينه سلطاناً عليها ، على أن يكون خاضعاً للحكومة المصرية ، ويؤدي إليها الخراج سنوياً . ولكن رؤى إرجاع الفتح مدة تستكمل خلال أعمال الاستطلاع والاستعداد . وإذا كانت حوادث الشرق أخرت التفكير في فتح دارفور وقتذاك ، فإن هذا لم يمنع محمد علي من استعمال وسائل التهديد والترغيب لضم دارفور إلى بقية أقاليم السودان التي تديرها مصر . فبعث برسالة في عام ١٨٣٠م إلى السلطان محمد فضل ، يدعوها فيها إلى التسليم . فأجابه السلطان برسالة فيها تصميم على الدفاع عن بلاده . مهما كان الثمن . وبذا نام مشروع فتح دارفور مؤقتاً حتى يحين الوقت المناسب (٣) .

(١) شقير : نفس المصدر ج ٣ ص ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ .

توفي السلطان محمد فضل عام ١٨٣٩ م ، فخلفه على عرش دارفور ابنه السلطان محمد حسين (١٨٣٩ — ١٨٧٤ م) وليس لدينا من سيرة هذا السلطان ما يستحق الاهتمام سوى شدة حرصه على المحافظة على استقلال بلاده . فيقال أنه أنشأ جيشاً قوياً سلحه — لأول مرة في تاريخ دارفور — بالأسلحة النارية ، بدلاً من السيوف والحرايب الدرق والسكاكين والنشاب (١) .

وتم حادثة مشهورة وقعت في عهد السلطان محمد حسين ، وهي الحادثة المعروفة بواقعة القرطاس . فيقال إن السلطان محمد حسين ساءه اعتداء عربان المعاليا على قافلة قادمة من مصر ، فاستغل السلطان ما عرف من عداوة قديم بين عربان المعاليا وعربان حمر ، وأوعز إلى شيخ قبيلة حمر بشن الحرب على المعاليا ، وأباح لهم دماؤهم وأموالهم . ونشبت بين القبيلتين معركة شديدة ، انتهت بهزيمة المعاليا ، وسميت هذه الواقعة بالقرطاس بسبب امتلاء الصحراء بقرطيس السكر والأنسجة التي كان عربان المعاليا نهبوها من تجار القافلة (٢) .

أما عن علاقة السلطان محمد حسين بمصر فإنها كانت على كل حال — طيبة ، ولو أنه كان دائم الشك في نوايا حكامها . واكتفى السلطان بتبادل الهدايا مع الخديو سعيد ثم اسماعيل .

أما خلفه السلطان ابراهيم (١٨٧٤ — ١٨٧٥ م) فإنه كان آخر سلاطين دارفور . ولم يتعد حكمه القصير سنة وسبعة أشهر ، انتهى بعدها عصر سلاطين دارفور . وغدت هذه البلاد جزءاً من الأقاليم السودانية الخاضعة لمصر . وقد رجع لمعهد إليه بفتح دارفور القيام بهذا العمل . أما هذا الرجل فهو الزبير رحمت العباس . تفصيل ذلك أن الخديو اسماعيل كان قد أصدر قراراً بتعيين

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .

الزبير حاكماً على إقليم بحر الغزال . ولكي يبرهن الزبير على ولائه للخديو ، بعد ما أشبع عنه عكس ذلك ، فإنه اعتزم السفر من بحر الغزال إلى الخرطوم لإعلان هذا الولاء ، والبحث مع حكامدار السودان — إسماعيل أيوب — فيما تتطلبه إدارة هذا الإقليم من وسائل تكفل توطيد سلطان الحكومة فيه . غير أن الزبير بلغه — قبل أن يغادر بحر الغزال إلى الخرطوم — أن عرب الرزيقات وغيرهم أغاروا على حدود مديريته وقطعوا الطريق بين بحر الغزال وبين دارفور . فرأى الزبير أن يقوم أولاً بتأديب أولئك العربان ، ثم يواصل سيره إلى الخرطوم عن طريق كردفان وأعد الزبير لهذا الغرض حملة تقدم بها شمالاً إلى مواطن الرزيقات .

ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار الزبير ودخوله شكاً . ثم هرب إثنان من مشايخ الرزيقات إلى دارفور ، وطلبوا من السلطان ابراهيم حمايتهما من الزبير وجنوده ، وعاهداه على الخضوع والطاعة بعد أن أعلن الرزيقات استقلالهم عن سلطنة دارفور من ٣٠ سنة مضت . ومن الطبيعي أن يرحب السلطان بحماية هذين الشيخين ، لما يترتب على حمايتهما من استرداد ما فقدته سلطنة دارفور من أقاليم (١) .

حاول الزبير إقناع السلطان ابراهيم بعدم الاهتمام بأمر هذين الشيخين للحفاظ على حسن العلاقات والمودة التي ربطت بين والده وبين الحكومة المصرية . وشرح له كيف أفسد الرزيقات الطريق الذي يربط بحر الغزال ببقية أقاليم السودان عن طريق دارفور . وختم الزبير رسالته إلى السلطان ابراهيم بأن هذين الشيخين فتنة ، ولا يليق بمثله أن يستمع إليهما . وظل الزبير يرسل السلطان عساه يقبل النصيح ، ولكن السلطان لم يوافق على تسليمهما . واستعد الطرفان للحرب ، وأدى انتصار الزبير على تجريده للسلطان قرب شكاً ، إلى تقدم قوات

(١) مكي شبكة : السودان في قرن ص ٨٦ — ٨٧ .

الزبير شمالا ، مكتسحا في طريقه كل أثر للمقاومة من جانب السلطان ، ولما رأى السلطان ابراهيم ، عدم جدوى هذه التجريدات التي بعث بها ضد الزبير ، قام بنفسه على رأس حملة أخيرة لمباغثة الزبير في بارة . بيد أن جيش السلطان لم يستطع اقتحام حصون بارة التي اعتمهم بها الزبير ، ومن ثم تراجع عنها ، فتعقبه الزبير وأدركه عند بلدة منواشى ، حيث دارت الدائرة على جيوش السلطان وانتهى الأمر بقلته ، وضياع ملكه سنة ١٨٧٥ (١) .

ظلت دافور تحت الإدارة المصرية في السودان من سنة ١٨٧٥م وهي السنة التي دخل فيها الزبير دارفور حتى سنة ١٨٨٣ وهي السنة التي امتد فيها نفوذ المهديّة إلى دارفور . ولم يخل عهد الحكم المصري في دافور من محاولات ، من جانب بعض الأمراء القوراويين لاسترداد ملكهم . كما لم يخل حكم المهديّة في دافور من حركات بعض الأمراء لتحقيق هذا الغرض كذلك . واستطاع أحد أولئك الأمراء ، وهو على دينار ، أن يظفر بحكم دارفور بعد استرداد السودان سنة ١٨٩٦ ، بشرط دفع الضرائب المقررة لحكومة السودان . وتلقب على دينار بلقب سلطان ، وظل على حكم دارفور حتى سنة ١٩١٦ . وفي هذه السنة جردت عليه حكومة السودان حملة انتهت بحكم سلالة سلاطين دارفور ، وأمسّت دارفور مديرية من مديريات السودان الحديث .

(١) شقير : نفس المصدر ج ٣ ، ص ٦٨ — ٨٣ .

نظام الحكم في سلطنة دارفور

جرى حكم دارفور على أساس الحكم الملكي المطلق . فالسلطان هو الرئيس الأعلى للدولة ، وكنيته نافذة في رقاب الناس وأموالهم ، ولأراد لحكمه فيهم إلا عن طريق الشفاعة . ويصل السلطان إلى العرش عن طريق الوراثة . ويتم اختياره من بين أفراد البيت المالكي في دارفور بواسطة مجلس خاص يوم وفاة السلطان الراحل . ويظل السلطان الجديد مدة سبعة أيام لا يباشر فيها أى عمل رسمى ، حتى إذا جاء اليوم الثامن ، أقيم لتتصيه حفل ضخم يحضره الخاصة والعامة من أهل دارفور . أما عن سلطته المطلقة ، فربما كان مبعثها ما قر في نفوس الناس من أن السلطان شخصية مقدسة يجب طاعتها طاعة عمياء . يبدو ذلك واضحاً من وصف التونسي لمجلس السلطان . من ذلك أنه إذا جلس السلطان في ديوانه للحكم ، وقف خلفه الحرس الخاص المسمون كوركوا ، وجلس القضاة والفقهاء عن يمينه ويساره ، ووقف أمامه اثنان من الأمناء (الوزراء) ثم سبعة من المترجمين ليكونوا واسطة بين السلطان وأصحاب الدعاوى . ثم يدخل أصحاب الدعاوى جاثين على ركبهم ، وإذا حياهم السلطان مسحوا التراب بأيديهم . وإذا تكلم أحد في مجلسه لا يبدأ الكلام إلا بقوله « سلم على سيدنا » إن كان المتكلم عربياً إن كان فوراوياً قال :

«أبا كورى دونجاني» ومعناها كذلك وإذا طال مجلس السلطان روح عليه خدمه بمراوح من ريش النعام ، وإذا خرج للصيد ، ظللوه بشمسية وأربع مراوح . وإذا وقع السلطان من على ظهر جواده ، وجب على من معه كائناً من كانوا ، أن يلقوا بأنفسهم من على ظهور الخيل . ومن خالف ذلك عوقب بأشد أنواع العقاب (١) .

أما عن نرى السلطان وشاراته فيذكر التونسي : أن السلطان يلبس قميصين من القماش الأبيض أو الأسود الرفيع المجلوب من مصر ، ويضع على رأسه كشميراً ويتلثم بلثام من القماش الأبيض ، ويضع على رأسه من هذا اللثام طيات ، وعلى أنفه وفمه لثاماً منه وكذلك على جبينه ، بحيث لا يظهر منه سوى عيناه ، ويضع السلطان في جنبه سيقماً وحجاباً مذهبين . وإذا سار رفعت أمامه سجاده (١) .

وعرف مجلس السلطان أو البلاط السلطاني باسم فاشر . ولما كان هذا المجلس يعقد عادة في الخلاء أو في الميدان الواسع أمام قصر السلطان ، فقد أطلق على هذا الميدان اسم فاشر . ولم يلبث هذا الاسم أن أطلق على قصر السلطان أو العاصمة التي يستقر فيه السلطان (٢) . وقد دأب السلاطين على التنقل بفاشرهم من منطقة إلى أخرى حسبما تقضى سياسة حفظ الأمن في الداخل ، أو الدفاع عن حدود البلاد ، ضد أي معتد من الخارج ، حتى إذا كان عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد ، اتخذ فاشره في تندلتي (٣) . ولم تلبث تندلتي هذه أن خلع عليها اسم الفاشر ، وهي مدينة الفاشر الحالية .

لا نعرف عن قصور السلاطين القدامى شيئاً ، وأول وصف للقصر السلطاني هو الذي ذكره التونسي خاصة بقصر السلطان عبد الرحمن الرشيد وإبنه السلطان محمد فضل . ويبدو من الوصف أنه كان يقع على شاطئ خور تندلتي ، ومن حوله منازل أمراء البيت المالك والوزراء والفقهاء وكبار رجال الدولة . ولهذا القصر سور به بابان كبيران ، خصص أحدهما للرجال ويعرف باسم وزيديا ، وخصص ثانيهما للنساء ويعرف باسم وريبايا ويحتوى القصر من الداخل على ديوان للسلطان وخزائنه ، ومساكن نسائه وجواريه وحرسه الخاص (كوركوا)

(١) المصدر : السابق : ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) Barth, H.: Op. Cit., pp. 552-553.

(٤) التونسي : نفس المصدر ص ٦٠ — ١٢٧ — ١٢٩ .

وسواس خيله (الكوريات) ومحل النحاس . ويعرف كل من هذه المساكن باسم اللقدايه . وخصص لكل فئة من هذه الفئات أبواب خاصة للدخول والخروج بلغ عددها جميعاً ثمانية ، منها أربعة لأهل وريديا وأربعة لأهل وريبايا (١) .

وتتقضى التقاليد أن يحافظ كل ذى منصب على موضع سكنه بالنسبة لقصر السلطان خلفاً عن سلف . فكل من تولى منصباً ، عليه أن يبني بيته في محل صاحب المنصب الأول أو قريباً منه ، ويحافظ هؤلاء على هذا النظام أثناء السفر كذلك (٢) .

ويحق للسلطان أن يقتني من النساء عشرات ، أربعاً منهن شرعيات والباقيات محظيات .

عرف أفراد الأسرة المالكة من الذكور بالأمرء ، عليهم رئيس منهم يحمل لقب باسى ، وهو المسئول عن سلوك أفراد الأسرة المالكة ، وترتيب زواج الأميرات (٣) . أما الأميرات فعرفن بإسم ميارم ، مفردة ميرم ، كما عرفت الأميرة الأولى بإسم إياباسى أما العجائز منهن فكن يعرفن بالحبوبات أما السيدة الأولى بالقصر السلطاني فإنها كانت تحمل لقب إيا كورى ، أى الملكة . وقد تكون الإيا كورى إحدى زوجات السلطان أو أمه أو أخته الكبرى . وتتمتع الإيا كورى بنفوذ واسع كذلك (٤) .

ويساعد السلطان في تصريف الأمور في الحكومة المركزية مجلس الأمناء ، أى الوزراء ، وعددهم أربعة ، رئيسهم الأب شيخ ، وهو الوزير الأعظم ، أى

(١) المصدر السابق : ص ١٧٣ — ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٨٧ .

(٣) Arkell, A.J.: S.N.R., Vol. XXXII, Part 1, p. 44 n.

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٨٦ .

رئيس الوزراء . ويتكون من هؤلاء وقاضى القضاة مجلس السلطان أوفاشره .
ويبدو أنه كان لكل من أولئك الأمناء الأربعة عمل خاص فى الحكومة المركزية .
فأمين على شئون العسكر (كوركوا) وأمين على خزائن وأموال الدولة ، وأمين
على شئون الخيل والدواب السلطانية ، وأمين على الأسلحة . ويقوم مجلس
الأمناء — فضلاً عن مساعدة السلطان فى تصريف شئون الدولة — باختيار
السلطان الجديد عقب وفاة السلطان بعد استشارة وجوه القوم حسبما يقضى الرسم
فى وراثة عرش السلطنة ، وللأمين مجلس وحرس وأمناء على مصالحه الخاصة
مثل السلطان ، ما عدا شارات الملك . ولكل منهم إقطاع خاص وحرس
خاص كذلك (١) .

أما منصب الأب شيخ ، فهو منصب الوزير الأعظم ، أى رئيس الوزراء ،
والقائد العام للجيش السلطاني ، فضلاً عن أنه كان يتولى حكم الولاية الشرقية
من مقره فى عاصمة السلطنة . والمعروف أن الرسم جرى فى دارفور ألا يتولى
منصب الأب شيخ سوى عبد خصى ، ومع هذا تولاه محمد كرا على الرغم من أنه
حر . والمعروف أن محمد كرا خصى نفسه ، ويبدو أن هذا كان كافياً فى نظر
السلطان عبد الرحمن الرشيد لتوليته هذا المنصب الخطير . ثم أن الأب شيخ كان
المرجع الأعلى لتفسير القانون المعروف باسم « قانون دالى » .

ومن مناصب الإدارة المركزية ، منصب الكامنة ، ويطلق عليه الفور اسم
« أبا فورى » . ويذكر التونسى ، أنه كان لصاحب هذا المنصب إقطاع كبيرة
وعساكر كثيرة ويفعل مثلما يفعل السلطان . ويبدو أن صاحب هذا المنصب
من سلالة ملوك الفور القدماء . وقد احتفظ بهذا المنصب الشرعى فى نظر الفور
إلى جانب صاحب النفوذ الفعلى فى البلاد وهو السلطان ويضيف التونسى :
« إن من عادة الفور أن السلطان إذا قتل فى الحرب وسلم الكامنة ، حتى رجع

إلى محل الأمن ، يقتلونه ، لكي يخنقونه سراً ، ويولون غيره للسلطان المتولى .
وإذا مات السلطان على فراشه لا يقتل الكامنة (١) .

ومن مناصب الإدارة المركزية كذلك منصب « أرونولوج » وصاحبه يقوم بعمل الحاجب في القصر السلطاني ، وهو الحاكم العام للعاصمة والمستول عن حفظ الأمن فيها (٢) .

ومن المناصب الهامة كذلك منصب السوميندقلة ، وصاحب هذا المنصب مستول عن شئون الحريم السلطاني وتربية أبناء السلطان ، فضلاً عن أنه كاتم أسراره ، ومبعوثه الخاص . ولجماعة السوميندقلة رئيس يعرف بملك السوميندقلة وهو « منصب عظيم القدر ذو أبهة عظيمة وأقطاع » على قول التونسي (٣) .

وللسلطان حرس خاص من حاملي الخراب يعرفون بالكوركوا . ومن هذا الحرس توجد فرقة للموسيقى ، وفرقة المغنين وحاملي القيشارات والطبول ومن إليهم (٤) .

واختص ملك الموجيه بإدخال السرور على قلب السلطان وتسليته (٥)
ويشرف على خيل السلطان جماعة الكورايات (٦) .

وتم منصب هام هو منصب ور يبايه ، ويختص بالإشراف على جميع الخصيان الموكل إليهم خدمة حريم السلطان ، ولذا فإن هذا المنصب لا يتولاه إلا خصي وهو الذي يتولى منصب الأب شيخ بعد وفاته ، وهو فضلاً عن ذلك صاحب

(١) التونسي : نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٢) MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 105.

(٣) التونسي : نفس المصدر ص ٧٤ — ٧٥ — ١٦٣ — ١٦٤ .

(٤) Voyage au Darfour, pp. 62, 161, 178.

(٥) التونسي : نفس المصدر ، ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٦) المصدر السابق : ص ٧٧ .

غضب السلطان ، ورئيس سجنه ، فإذا غضب السلطان على شخص ، عهد إلى وريثه يزرجه في هذا السجن (١) .

ويلى هذا المنصب منصب ملك العبيدية ، وهو الحاكم على جميع عبيد السلطان خارج القصر السلطاني وفي الأقاليم ، والمسئول عن مواشى السلطان وآلات السفر من خيم وقرب وغيرها (٢) . ولقد جرت عادة سلاطين دارفور على جلب عدد من الأرقاء للعمل في خدمة السلطنة . ومن هؤلاء يمكن أن نميز بين مجموعتين ، الأولى الأرقاء الذين جلبهم السلاطين ، ولا سيما السلطان تيراب ، أواخر القرن الثامن عشر من جبال نوبا بكردقان ، ومن هؤلاء العبيدية الذين يعيشون حول كبكايية ، وكتم وكذلك اسادنجا الذين جلبوا من إقليم برنو . أما المجموعة الثانية فهي التي كانت في أقصى الجنوب ، وكانت موزعة بين جنوب دارفور ، وشمال بحر الغزال ، وإقليم واداي ، وأطلق على هذه المجموعة زمن التونسي اسم فرتيت ، وهو اسم أطلقه العرب على القبائل الزنجية التي تعرضت لغزو العرب واسترقاقهم .

ويلى ملك العبيدية ، ملك القوارين ، أى المكاسين ، ويتبع صاحب هذا المنصب عدد من جباة الضرائب على التجارة الصادرة والواردة . ثم ملك الجبايين ويتبعه عدد من الجباة الذين يقومون على جباية الضرائب عيناً من غلال وحبوب ، وغيرها . ثم ملك الحدادين (٣) .

أما عن حكم الأقاليم ، فيبدو مما ذكره التونسي أن سلطنة دارفور حتى عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد ، وإبنة السلطان محمد فضل ، كانت تنقسم من الناحية الإدارية إلى أربع ولايات ، عرفت الواحدة منها باسم دارفور ، ويلى الحكم فيها

(١) المصدر السابق : ص ١٦٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

وال من قبل السلطان ، كان بمثابة ملك "Vice-roy" وهم « أباديما » على ولاية جنوب غرب دارفور ، والتكتياوى على الولاية الشمالية و« أبومانج » على ولاية جنوب شرق دارفور ، والأب شيخ على الولاية الشرقية بالإضافة إلى عمله الأصلي الذى سبقت الإشارة إليه .

ويذكر التونسي ، أنه أطلق على كل واحد من أولئك الولاة لقب خاص يدل على علاقته بالسلطان ، وهى ألقاب مشتقة من جسم السلطان . غير أن ناخيتيجال لا يوافق التونسي على ذلك ، ويرى أن مناصب الولاة الثلاثة أباديما ، والتكتياوى ، وأبوما ، كانت وراثية ، وأن كلا منهم ينتمى إلى بطن من بطون الفور . أما الولاية الشرقية التى كان يليها الأب شيخ ، فإنها لم تكن كذلك . لأن واليها خصى .

وتذكر المراجع أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر تعدل هذا النظام ، وتحولت الولايات الأربع الكبرى فيما بعد إلى مقدمات مفردتها مقدمية ، على كل منها مقدم . يلى منصبه بطريق التعيين ، حتى لا يزداد نفوذ الولاة القدامى على حساب السلطان . كما ألغى منصب الأب شيخ بعد النزاع الذى نشب بين الأب شيخ محمد كرا ، والسلطان محمد فضل . وأبقى النظام الجديد على مناصب أباديما والتكتياوى وأبوما إلى جانب المقاديم ، وهو ما يعرف بالنظام المزدوج . واختلفت طبيعة نفوذ كل من الولاة القدامى قوة وضعفاً من مقدمية إلى أخرى . مثال ذلك أن أبوما (أو منجاوى) لم يتعد نفوذه منطقته صغيرة فى جنوب شرق جبل مرة ، على حين أن أباديما (ديماجاوى) ظل قوة لها خطرهما فى جنوب غرب دارفور . أما التكتياوى فإنه خضع خضوعاً تاماً لمقدم الشمال . وظل هذا النظام حتى نهاية حكم على دينار سنة ١٩١٦ م .

أما عن سلطة الوالى أو المقدم ، فإنها كانت مطلقة ، فله على الناس الخاضعين لسلطانه حق الحياة أو الموت ، ما عدا بعض الحالات الخاصة التى يرجع فيها

إلى السلطان . ويتمتع الوالى أو المقدم فى إقليمه بكل ما يتمتع به السلطان فى بلاطه من مظاهر ، مثال ذلك أن له حاجباً (أرولندولنج) وحرساً خاصاً (كوركوا) وجيشاً خاصاً كذلك .

وتنقسم كل ولاية أو مقدومية إلى اثنتا عشرة شرتايه ، على رأس كل منها حاكم يعرف بالشرتاي ، والجمع شراتى ، وتنقسم الشرتايايات إلى عدد من الدمليجات ، على رأس كل منها حاكم يعرف بالدمليج ، وهو شيخ القبيلة . ويبدو أن لفظ دملج ، لفظ عامى معرب معناه «أسورة تلبس فوق المرفق» ويطلق على الدمليج فى لغة الفور اسم دلمنج "Dilmong" ويتبع الدمليج عدد من مشايخ القرى يعرفون عادة بالملوك ، ويطلق الفور عليهم إسم سجالا Sagala مفردة سجال Sagal .

ويبدو أن لقب ملك من الألقاب الشائعة فى دارفور وقد استعاره الفور من العرب وأطلقوه دون تمييز على كل ذى سلطة أو نفوذ ، من شيخ القرية إلى سلطان دارفور نفسه . أما العربان سواء من البقارة أو من الأباله ، فكان على كل قبيلة منها رئيس ، ويعرف هؤلاء الرؤساء بالسلطين الصغار وذلك للتفريق بينهم وبين سلطان دارفور . ويتم تعيين هؤلاء السلطين الصغار بفرمان من السلطان ، ويتبعون واحداً من الولاة أو المقاديم السابق ذكرهم .

وجرت عادة حكام الأقاليم فى دارفور أن يرسلوا أولياء عهدهم إلى قصر السلطان ليظلوا رهائن عنده . وبذا يضمن السلطان ولاء آبائهم له من ناحية ، ويضمن من ناحية أخرى ولاء هؤلاء عندما يتقلدون حكم بلادهم . ولذا خصص السلطان لأولياء العهد وأبنائه وأبناء الأمراء منزلاً خاصاً ملحقاً بقصره ، وعهد إلى سوميندقلة بالإشراف على تربيتهم . وتعليمهم القراءة والكتابة . وقد يكون من بين هؤلاء دادات السلطان مستقبلاً .

والدادات هم الذين تربوا ونشأوا مع السلطان منذ نعومة أظفارهم .

أما عن نظام الملكية في سلطنة دارفور ، فالمراجع تشير دائماً إلى أن الأرض ومن عليها ملك للسلطان ، يقطعها لمن يشاء من رعاياه . وقد قسم سلاطين دارفور الأراضي الزراعية إلى حوا كبير (مفردها حاكورة ، أى إقطاع) وأقطعوها لأفراد البيت المالك وخاصتهم وكذلك الفقهاء وكبار رجال الدولة ، بمقتضى حجاج مختومة بأختامهم . فماش هؤلاء والقائمون على زراعتها ما تنتجها هذه الحوا كبير من محاصيل . كما قسم السلاطين قبائل البادية على الأمراء . وفيما يلي نص وثيقة إقطاع كتبها السلطان عبد الرحمن الرشيد للفقير عمر التونسي ، أبي الرحالة المشهور محمد بن عمر التونسي (١) : « من حضرة السلطان الأعظم والملاذ الأتم ، سلطان العرب والعجم ، ومالك رقاب الأمم ، سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، الواثق بعناية الملك المبدى المعين ، السلطان عبد الرحمن الرشيد . إلى حضرة الملوك والحكام والشراطي والدمالج وأولاد السلاطين ، والجبايين ، وأهل دولة السلطان من العرب والسودان أما بعد : فإن السلطان المذكور المبرر ، المؤيد المظفر ، المنصور تفضل وأمد بمعونته وأعطى العلامة السيد الشريف عمر التونسي ، قطعة من الأرض كائنة بأبي الجدول ، حاوية لثلاث حقل من حلة جولتو والدبة وأم بعوضة ، بمحدودها المعروفة ، واتخاذها الموصوفة حسبما حدده الملك جوهر للملك خميس عرفان . لا يعارضه فيها معارض ولا ينازعه منازع من أهل المملوكة خصوصاً جبابي العيش . يتصرف فيها بأي نوع من وجوه التصرفات شاء ، هبة لوجه الله تعالى ، وطلباً للثواب في المثاب ، والحذر ثم الحذر من الخلاف ، والتعرض من الخصاص أو العام » .

ويذكر التونسي أن الحكام يسخرون رعاياهم في زراعة حوا كبيرهم ، دخناً وذرة وسمماً وفولاً وقطناً ، ثم يصدونها ويدرسونها لهم قهراً عليهم . ويقوم أولئك الحكام ببيع هذه المحاصيل وشراء ما يلزم لجيوشهم من خيل وأسلحة .

(١) التونسي : نفس المصدر ، ص ٦٤ — ٦٥ .

ولهؤلاء الحكام - فضلاً عما تنتجه حواكيرهم من محاصيل - مصادر أخرى للدخل منها، الهامل، أى الضال من رقيق وبقر وغنم وحمير، ومنها التقدام، وهى الهدية التى تقدمها إليه الرعية حين قدومه عليهم من عند السلطان حاملاً فرمان التولية. ومنها: الخطية، أو الحكم وهى الغرامة التى تحصل ممن تثبت إدانته فى قضية من القضايا المعروضة عليهم للفصل فيها.

أما الإيرادات التى ينفق منها السلطان على قصره وحاشيته وجيشه، فإن لها مصادر مختلفة منها عشر الحبوب التى يجبها ملك الجبايين ومساعدوه من الحضر. ويقال إن نصيب السلطان من هذه الحبوب يحفظ فى مطامير أو مخازن خاصة لحين الحاجة إليها. أما البدو فتجب منهم زكاة الماشية. وللسلطان عشر قيمة المتاجر الصادرة أو الواردة، كما أن له نصيباً من الأسلحة التى تنتجها جماعة الحدادين، هذا فضلاً عما يدخل خزينة السلطان من هدايا أصحاب الحواكير، والتجار، والحكام على مختلف طبقاتهم. ذلك أن العرف جرى فى دارفور، ألا يدخل أحد من هؤلاء على السلطان إلا ومعه هدية تعرف «بالسلام» وتشتمل هذه الهدية فى الغالب على رقيق وإبل وخيل وبقر وغنم وتكاكى وعسل وسمن وسن ريش.

أما القضاء فى دارفور فكان يتمشى مع أحكام الشريعة الإسلامية ولا سيما فى المناطق التى غلب عليها الطابع العربى الإسلامى، ويتولى النظر فى القضايا فى هذه الأقاليم قضاة تابعون لقاضى القضاة فى العاصمة.

أما المناطق التى لم يتخل سكانها عن عاداتهم وتقاليدهم القديمة، فكانت تطبق عليهم أحكام القانون المعروف بإسم «قانون دالى»^(١) ولفظ دالى هذا معناه فى لغة الفرر «لسان» وقد يكون المقصود به (لسان السلطان أو أوامره)

(١) راجع شقير، ج ٢، ص ١٣٧ - ١٣٨

وتذكر بعض الروايات أن هذا القانون ينسب إلى السلطان دالي وهو الذي جمعه وسجله في كتاب عرف بكتاب دالي . وكيفما كان الأمر فإن هذا القانون استمد أحكامه من عادت أهل البلاد وتقاليدهم . ويقوم على تنفيذ أحكامه وتطبيقها الولاة والشراتي وأصحاب الحواكير . ومن أحكام هذا القانون على سبيل المثال :

(١) أن يكون الملك وراثياً للابن الأكبر ، إلا إذا كان غير لائق للأحكام فيولون غيره ممن يتمتع باللياقة من أفراد الأسرة المالكة .

(٢) قصاص السارق غرامة ست بقرات أو ما هو بثمنها ، فإذا لم يقدمها حبس إلى أن يفتديه أهله .

(٣) قصاص القاتل ، القتل ، إذا كان القتل عمداً ، وإلا فدفن الدية : مائة بقرة إذا كان من البقارة ، أو مائة إبل إذا كان من الأباله .

(٤) أما الزاني ، فإن زنى بمحضنة فغرامته ٦ بقرات ، أو بايثم فبقرة واحدة ، أو بيكر فكل منهما يغرم بقرة .

(٥) وقصاص الضارب . فإن كان في الضرب جرح فغرامة ثوب من الدمور ، وإن لم يكن جرح ، فنصف ثوب . وهكذا جزاء الشاتم .

ويلاحظ أن كل هذه الغرامات يتقاضاها الحكام ، ويتقاسمونها مع السلطان ، ولذلك ما عدا دية القتل ، فإنهم يشاركون فيها أهل القتل .

مصطفى محمد صبر